التّأويل والتّفكيك عند أمبرتو إيكو
بين فعل القراءة وفعالية القارئ

أ.مراد بوزكور
جامعة جيجل

Summary:
It is known that the theory of reading and reception has been proposed by (Hans Robert Jauss) and (Roman Jacobson) has invested in establishing the rules of the communication process, focusing on the (recipient). And then receiving strategy was developed by (Wolfgang Iser).and although (Umberto Eco) did not devote his theoretical writings for the theory of reading and receiving, However, his contributions in this field have emerged remarkably in his various critical books on the theory of interpretation, including: the reader in the story, open work, the limitations of interpreting, hermeneutics between semiotics and deconstruction, where he talked about the semiotic reading and reader type attributes, and reading mechanisms, conditions of interpretation and deconstruction.

1. كفاءة النظرية:

تطوّرت الأفكار المتعلقة بنظريّة القراءة والقارئ قبل السيميولوجيا من خلال نظريّة الإعلام وآراء ريتشاردز (Ivor Armstrong Richards). وجون بياجيه (Jean Piaget). وميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty)... ثم من خلال السيميولوجيا البنيوية والهيرمينوطيقا وكتابات رولان بارت (Roland Barthes) في مجال القراءة والاتّصال (1966). ومخطّط جيرار جينيت (G.Genette). ونظرية الأصوات والتّبئير (Voix et Focalisation). وتوضيحات جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) حول "الإنتاجية النصية" (1970). و"القارئ النموذجي" عند مايكل ريفاتير (M.Riffaterre) (1971). وماريا كورتي من

خلال "القارئ الضمني" في كتابها (مبادئ الاتّصال الأدبي) (1976). وفولفغانغ أيزر في كتابه "القارئ الضمني" (1972).

إنّ من سمات (القراءة) عند الباحثين المعاصرين أنّها أشبه ما تكون "بقراءة الفلاسفة للوجود، إنّها فعل خلاّق يقرّب الرّمز من الرّمز، ويضمّ العلامة إلى العلامة، ويسير في دروب ملتوية جدّا من الدّلالات" [1] فروبير دو ترانس (Robert de Trans) يعرّف القراءة بقوله إنّها: "عملية يراد منها إيجاد الصّلة بين لغة الكلام والرموز الكتابية" [2].

والقراءة عند رولان بارت (R.Barthes) تعني: (إيجاد المعاني، وإيجاد المعاني يعني تسميتها، بيد أن هذه المعاني المسماة تنجرف نحو أسماء أخرى... ويتطلب تكتلها تسميتها من جديد) [3]. ويعرّفها علي حرب بقوله إنّها:"نشاط فكري مولّد للتباين، منتج للاختلاف" [4].

ولأن القــراءة نشــاط فعّال ومنتــج، فقد أولاها أمبرتو إيكو (Umberto Eco) أهمية قصوى في كتاباته النقدية، وفي هذا الصّدد يقول عن تحوله المنهجي من القراءة التداولية:"أدركت، متأخرا أنني طالما اشتغلت في التداولية، بلا معرفة، أقلّه فيما يدعونه علم تداول النص أو جمالية التلقي" [5]. وعليه فقد اتجه لينظّر ويؤسّس لقراءة أخرى هي "القراءة التعاضدية" يقول في ذلك:"أزمعت على معالجة النشاط التعاضدي الذي يعمل على حث المرسل إليه على أن يستمدّ من النص ما لا يقوله" [6].

ويعترف إيكو باغترافه من مفاهيم (الظاهراتية) ونظرية (التأويل) عند لويجي باريسون (Luigi Parisson) إلا أنه يقول إن هذه المفاهيم والنظريات "غير كافية لتحليل استراتيجية نصية كاملة" [7]. ولهذا اتجه نحو أبحاث (الشكلانيين الروس) والألسنية والأنثروبولوجيا البنيوية وأفكار رومان جاكوبسون (R.Jackobson) وأعمال رولان بارت.

وعن هذه المرحلة، أي مرحلة السيمياء البنيوية في الستينات، بدأت محاولات الربط بين الناقد والنص يقول إيكو (إنّ الاعتقاد السّائد أنّ النص ينبغي أن يعالج وفق بنيته الموضوعية كما تتبدى للنّاقد، انطلاقا من سطحها الدّال) [8]. وهنا تظهر فعالية النّاقد أو المرسل إليه، فالنص في (حال ظهوره من خلال سطحه أو تجليه اللّساني، يمثل سلسلة من الحيل التّعبيرية التي ينبغي أن يفعّلها المرسل إليه) [9] لأنّ النص حسب إيكو عبارة عن "آلة كسولة تتطلب من القارئ بذل جهد تعاضدي جبار لكي يملأ فراغات ما لم يقل وما قيل" [10].

ورغم ذلك، فإنّ إيكو يرى بأنّ البنيوية السيميائية قد (أهملت المرسل إليه (المتلقي) وباتت في الظل، هذا إن لم تلغ كليا) [11]. كما أنّ السيميائية حسب إيكو "تتناول النص من أعمق جذوره التكوينية" في حين يسعى هو في مشروعه النّقدي إلى (مبادأة النص من على سطح القراءة، وكيف ينبغي أن تكون كلّ قراءة له إبانة محضة له، إبانة عن مسار تكوين بنيته) [12].

فهذا التوجّه المنهجي الجديد في القراءة والتّأويل، يكشف أهميّة كيف يقرأ النّاقد النص؟ وكيف أن كل وصف لبنية النص ينبغي أن يكون وصف حركات القراءة التي تقتضيها؟ ويرى إيكو أنّ التوجّه نحو (القراءة) من شأنه أن يساهم في "تنمية جمالية للتّأويل والتّلقي" [13] كما أنّ نظريّة "التّعاضد النصية" تسعى إلى أن تكون "قادرة على شرح ما يجده القارئ/النّاقد في نتاج أدبي، وتبيان السبب في المنعة المتحصّلة من قراءته" [14].

ويقول أمبرتو إيكو في كتاب "التّأويل بين السيميائيّات والتّفكيكية" متحدثا عن اهتماماته بنظرية (القراءة) وتحمّسه لها: "توجد حالة أشعر فيها بتعاطف مع النظريّات المهتمة بالقارئ" [15]. كما يقول مؤكدا على أهميّة هذا التوجّه حينما يربطه بقيمة النّتائج المترتبة عليه: "إنّي أدرك أنّ العرض الذي قدّمته عن النظريّات التّأويلية الأشدّ تطرّفا والمستندة إلى القارئ عرض

كاريكاتوري، ومع ذلك فعادة ما يقدم الكاريكاتور بورتريها جيّدا إن لم يكن لما هو كائن، فهو كذلك بالنسبة لما سيأتي، شريطة أن يدفع بفرضيات المنطلق إلى نتائجه القصوى" [16]. ومن معالم هذه المنهجية القرائية، أن يبلور القارئ ما يسميه "المنهج الهوسي" أي الشك لقراءة العالم وقراءة النصوص.

وإلى جانب السيميائية والتداولية، يعتقد إيكو أن نظرية (التواصل) قد أهملت هي الأخرى مسألة "التوقّع" أو "الاستباق" والمقصود بذلك توقع أو استباق النص لقارئه، ولهذا راح إيكو يصوغ القانون التّالي:"إنّ كفاية المتلقي ليست بالضرورة مساوية بأهميتها لكفاية الباث" [17] كما أن ارتقاب أو استباق المؤلف للقارئ النموذجي، لا يعني أن "يأمل في وجوده" بل أن يؤثّر في النص بما يؤدي إلى تشكيله، والنتيجة أن يتحول النص من حالة "الكسل" إلى حالة "النشاط".

وبهذا القانون، توصل إيكو إلى قناعة مفادها أنّه يمكن تغيير (خطاطة) نظريّة التّواصل الإعلامية، فنسق (المرسل إليه) يختلف عن نسق (المرسل) والنّسق (اللّساني) لا يكفي لتفكيك (شفرة) (الرّسالة اللّسانية)، وعلّة ذلك أنّ أشكالا أخرى من العناصر اللّسانية الخارجية، كالإيمائية والإعلانية وسلوكية كالفكر والارتجاع (المرجعية)، تتدخّل كتعزيزات في عمليّة التّواصل اللّفظي، والنّتيجة:لا وجود لتواصل لساني صرف، بل هو تواصل سيميائي، تتكامل فيه أنساق العلامات لتأدية الرّسالة.

2 ـ القراءة فعل منتج:

يرفض إيكو ما يسميه "القراءة الوحيدة الجلدية للنصوص" [18] ويعتبرها قراءة خاطئة. ويتبنى القراءة (النّسبية) وتحوّلاتها، لأنّها تضفي على النص محمولات متعدّدة التّأويل، وتؤسّس لرؤى تجعل من النص أكثر انفتاحا وتبعده عن الرّؤية المغلقة، وهو أمر ممكن عند الذّات المتلقية.

ويذهب إيكو إلى أن الإمتاع والتذوّق الجمالي - كمكّون لفرضيات القراءة- لا يزيحه مفهوم التّأويل والتّأويل المضاعف، لأنه حسب إيكو ليس من شروط القراءة، فالقارئ بإمكانه اكتشاف الطاقة التّأويلية من خلال الغوص في متاهات النص من أجل تحريره من حدوده، وبالتّالي تحرير فعل القراءة.

وفي كتاب "القارئ في الحكاية" يتحدث إيكو عن الديناميكية التي بفضلها يمكن اعتبار (المتلقي) ركيزة أساسية في عملية إنتاج الدّلالة، ويمثّل (القارئ) في بعض فصول هذا الكتاب "متفرّجا افتراضيا" أو "ذاتا" ذات دلالات قاموسية.

ومن سمات وشروط القراءة المنتجة والفعّالة، أن يكون القارئ هو العامل الجدير بأن يفتح القاموس لدى كل كلمة، وأن يلجأ إلى سلسلة من القواعد النّحوية السّابقة، في سبيل أن يفقه وظيفة العبارات المتبادلة في سياق الجملة الآنفة، وكل رسالة يفترض أن تحمل كفاية نحوية لدى المرسل إليه.

3 ـ القارئ/المؤلف:

يحكم فعل (التأويل) عند إيكو جدل دائم بين "استراتيجية المؤلف" واستجابة "القارئ النموذجي". وقد طرح إيكو في محاضرات "التأويل بين السيميائيات والتفكيكية" جدلية "حقوق النص" و"حقوق المؤلّف"، وأقرّ بأن "حقوق القارئ/المؤوّل" تتفوّق على كل الحقوق. ويعتبر أن التأويل الجذري الموجّه نحو (القارئ) هو التأويل الوحيد الصحيح، لأن "قصدية المؤلّف" صعبة التحديد وبدون أهميّة في قراءة/تأويل النص [19].

وهكذا يدعو (إيكو) إلى إحلال "قصدية القارئ" محلّ "قصدية المؤلّف" لأن المؤلف (لا يعرف ما يقول واللّغة هي التي تنوب عنه) [20]. فعندما يتمّ إنتاج

نص ليتداوله (القراء)، فإنّ تأويل هذا النص لا يتمّ وفق رغبات (الكاتب)، بل يتمّ وفق استراتيجية معقّدة من التفاعلات التي تستوعب القرّاء باختلاف مؤهّلاتهم اللّسانية كموروث اجتماعي.

ويذكّر إيكو بوجود حالة يستحب فيها استحضار "قصدية المؤلف" في عملية القراءة والتأويل، وذلك حينما يكون على قيد الحياة، بأن يسأل المؤلف عن "وعيه" بمجمل التأويلات التي تعطى لنصه، قصد معرفة التباين بين "قصدية المؤلف" و"قصدية النص" [21]

وينظر إيكو في العمل الحكائي إلى "العالم الممكن" من زاويتين: زاوية (المؤلف) وزاوية (القارئ)، فالمؤلف يعمل على بناء عالم ممكن بنصه الحكائي من خلال استراتيجية لغوية يعتمدها في وصف مسار الأحداث تستهدف إثارة تأويلات من طرف القارئ النموذجي. أما الزاوية الثانية، فإن العالم الممكن هو بناء ثقافي يشيّده القارئ انطلاقا من موسوعته الثقافية [22].

ويعتقد إيكو أنّه ينبغي على المؤلف أن يلجأ إلى سلسلة من "الكفايات" التي من شأنها أن تمنح العبارات المستخدمة مضمونا، وهذا ما يلزمه التسلح بمجموعة من "الكفايات" التي يرجع إليها هو ذاته مثلما يرجع إليها قارئه، لذلك نجد هذا (المؤلف) "يفتّش" عن "قارئ نموذجي" يتوفر على مجموعة من "الوسائط" كاللغة والموسوعة والتراث المعجمي والأسلوبي... من أجل تأويل النص. لذلك ترى المؤلفين (يحيطون قارئهم النموذجي بفطنة اجتماعيّة وحذر إحصائي، فهم يخاطبون كل قارئ بدوره وعلى التوالي: الأولاد، هواة الموسيقى، والأطباء من بعدهم، ثم اللواطيين، وهواة المراكب الشراعية، ومدبرات المنازل من الطّبقة البورجوازية الصغيرة، وهواة جمع الأقمشة الإنجليزية والرجال الضفادع) [23]

فالمؤلفون يتصرفون وفق ما يرجوه قارئهم "المأثور" من حيث العبارات والأساليب والإحالات الموسوعية، ويقصدون إلى إثارة انفعال "الرّعب" في المخاطبين من أجل تحقيق أهداف النص.

وفي إطار العلاقة بين (القارئ) و(المؤلف)، يرى إيكو أن (المرسل) و(المرسل إليه) غالبا ما يتجلى عبر الرسالة نحويا، وحين يتعلق الأمر برسائل ذات مرجعية (fonction référentielle) فإنّ (المتلقي) يستخدم هذه الآثار يستخدم هذه الآثار النحوية باعتبارها "قرائن مرجعية" (indices empirique) وينطبق هذا على النصوص الطّويلة (رسائل، صفحات من يوميات) و(القارئ) يهدف في هذه النصوص إلى التعرف على معلومات عن (المؤلف) وظروف كتابته للنص. وحينما يكون النص موجها لجمهور واسع من القراء، مثل (الرّوايات، الخطب السياسيّة، المقالات العمليّة) يكون المرسل والمرسل إليه حاضرين في النص.

4 ـ القارئ/النص:

يتساءل إيكو إن كان ما يكشفه (القارئ) من تأويلات يتطابق مع ما يقوله (النص) استنادا على "الانسجام النصي" و"النسق الدلالي الأصلي" أو يعود إلى "نسق الانتظار" الخاص بالقارئ؟ فإن كان بالإمكان الحديث عن قصدية (النص) فإن ذلك مرتبط بتخمينات القارئ، وتخمينات هذا القارئ ليس وحدها التّخمينات الصّحيحة.

كما أن مبادرة القارئ تعود إلى قدرته على تقديم تخمين للنص، الذي هو "جهاز" لإنتاج "قارئ نموذجي"، ثم إن مبادرة القارئ تكمن في تصوّر "كاتب نموذجي" لا يشبه الكاتب المحسوس، بل يتطابق مع استراتيجية (النص) ومن هنا فإن الانسجام الداخلي للنص هو الرقيب على القارئ.

وفعل (القراءة) يجب أن يأخذ في الحسبان أن الإرث الاجتماعي للغة، لا يحيل على لغة بعينها كنسق من القواعد، بل يشمل الاستعمالات الموسوعية الخاصة لهذه اللغة والمواصفات الثقافية التي أنتجتها اللغة وتاريخ التأويلات السابقة لمجموعة من النصوص، بما فيها النص الذي بين يدي القارئ، كلها عناصر يجب أن تأخذ بعين الاعتبار، حتى لو استحال على القارئ استيعابها كلّها، فالقراءة هي فعل تفاعلي بين أهلية القارئ وبين الأهلية الكفاءة التي يستدعيها النص.ولهذا وجب على القارئ/المؤوّل احترام الخلفية الثقافية واللسانية للنص.

ومن زاوية أخرى، يعتقد إيكو أن (النص) لا يقول بالضرورة ما اعتقد (القارئ) أنه قرأه، فبين "قصدية الكاتب" الصعبة الإدراك وبين "قصدية القارئ" هناك "القصدية الشفافة للنص، وهذه القصدية هي التي تدحض التأويل الهش" [24]. كما أن (النص) يصادر على (المتلقي) خاصيته، باعتباره شرطا لا غنى عنه لطاقته التواصلية الملموسة.

وفي كتاب "الأثر المفتوح" يتحدث أمبرتو إيكو عن أهمية العنصر الذاتي في المتعة الجمالية، هذه الأهمية تكمن في العلاقة التفاعلية بين الأثر - الذي هو المعطى الموضوعي- والذات التي تستقبله [25] ويذكّر إيكو بقول أفلاطون الذي يشير فيه إلى أن الرّسّامين لم يكونوا يقدمون شخوصهم بشكل واقعي تماما، ولكن من خلال الزاوية التي من خلالها يتم النظر إلى هذه الشخوص [26].

فالقارئ للأثر الفني يجب أن يعرف أنّ "كل جملة وكل شخصية تخفي دلالات متعددة لأشكال يتحتم عليه اكتشافها"، فتسمية الموضوع يعني - وفقا لما ذكره مالارميه - استبعاد ثلاثة أرباع من متعة القصيدة [27]. فالمتعة والسّعادة بالنّسبة للقارئ للأثر الفني، تكمن في التّلميح دون التّصريح، وهكذا يتّجه

النص المبني على الإيحاءات، صوب العالم الدّاخلي للقارئ، وهو بذلك يبرز أجوبة جديدة وغير منتظرة. وعلى القارئ أن يختار بحسب حالته الذّهنية "المفتاح الأفضل بالنسبة إليه، ويستخدم الأثر بشكل يمكن أن يكون مختلفا عن الشّكل المتبع أثناء قراءة سابقة" [28]. فالاختيار مرتبط بالحالة الذّهنية للقارئ وفقا للقراءات السابقة، وبهذا الشكل يكون الأثر مفتوحا على التّفاعل الحرّ للقارئ.

5 ـ القارئ وتأويل الاستعارة:

إن التأويل الاستعاري يمثل علاقة تفاعلية بين القارئ/المؤوّل والنّص، حيث تفرض طبيعة النص، وطبيعة الإطار العام للمعارف الموسوعية لثقافة ما، نتيجة هذا التأويل، وهي نتيجة لا علاقة لها بقصدية المتكلم، فبإمكان القارئ النموذجي/المؤوّل، النظر إلى أي ملفوظ نظرة استعارية في إطار الثقافة الموسوعية المدعمة بالتّجربة، فالنص وكذا الموسوعة التي يقترحها، هي التي تمنح القارئ النّموذجي إيحاءاته.

ويرى إيكو في باب الاستعارة تماشيا مع رأي (بلاك) [29] أن القارئ لا يحتاج - من أجل تأويلها- إلى تعريف مستقر من القاموس، بل إلى يحتاج إلى نسق من المبادئ الموسوعية لهذه الاستعارة. كما يذهب إيكو مذهب كلا من: (بيردسلي) [30] و(هيس) [31] و(ليفين) [32] و(سورل) [33] في الاحتجاج بأن المتلقي يؤوّل ملفوظا ما تأويلا استعاريا عندما يدرك عبثية المعنى الحرفي [34] فالمؤلف يروي سلسلة من الأحداث التي تبدو بلا أهميّة ضمن الخطاب، فيجعل القارئ يشكّ في وجود معنى ثان لهذه الكلمات.

إنّ الاستعارة – بعد أن تؤوّل – تفرض على القارئ النظر إلى العالم بطريقة جديدة، ولتأويلها وجب على القارئ أن يتساءل: (كيف؟) وليس (لماذا؟) تريه العالم بهذه الطّريقة الجديدة؟ ففهم الاستعارة لا يتطلب الرّجوع إلى الأشياء كما هي موجودة في العالم وإدراكها، بل يتطلب الرجوع إلى محتويات التّعابير المشكّلة للاستعارة، أي الرجوع إلى المؤوّلات المختزنة في الموسوعة الثّقافية للقارئ [35].

6 ـ القارئ النموذجي:

يحذو إيكو حذو (آيزر) في البحث عن "القارئ النموذجي" أو "القارئ الاستدلالي" لدعم ما يسميه "التّعاضد الاستدلالي"، ويرفض في المقابل المتلقي "الإستاتيكي"، فالقارئ النموذجي عنده، هو الذي يعمل على تحريك الدّلالات والانفتاح على أقصى حالات التّأويل الممكنة، بما يسهم في إعادة إنتاج شفرات النص ودلالاتها.

وفي هذا المقام، يذكّر إيكو بقول (تودوروف) الذي يعتبر النص مجرّد"نزهة يقوم فيها المؤلّف بوضع الكلمات ليأتي القرّاء بالمعنى" [36]. فالنص يمثل "آلية كسولة ومقتصدة" [37] تحيى من قيمة المعنى الزّائدة التي يكون المتلقي قد أدخلها على النص.

والقارئ النّموذجي هو في جوهره، آلة مفهومية ومثالية تعمل بجدّ ونشاط، فهو يملأ فضاءات المسكوت عنه أو المصرّح به، كأنظمة دلالية، ثم يبرز كموضوع سيميائي ضمن البنية الغائبة، ولا يبتعد عن الأطروحات الافتراضية التي تحتوي على مقولات "تمطيط الكلمة" و"المثال" و"المؤوّل" [38] والقارئ

النّموذجي هو أيضا اجتماع لشروط النّجاح أو السّعادة التي وضعت نصيا، والتي ينبغي أن تستوفى في سبيل تؤويل النص في مضمونه الكامن.

ويطلق إيكو مصطلح "التّعاضد النصّي" في خضّم حديثه عن القارئ التجريبي، ويعني به "المقاصد المتضمّنة اللفظ وهي في حالة الإمكان، ولا نعني به تفعيل خاصة فاعل التلفّظ التجريبي"[39]. ويرى إيكو أنّ على "القارئ التجريبي" واجبات لغوية ليكون "قارئا نموذجيا"، وأهمّها أن يعي شفرات المرسل قدر الإمكان ليتسنى له الفهم والتأويل، كما عليه أن يقدّر البنى الدلالية العميقة التي لا يمنحها سطح النص، باعتبارها مفتاحا لتفعيل النص تفعيلا كاملا، ك"البنى الفاعلية"(structures actantielles) والبنى الإيديولوجية.

ويشرح إيكو العلاقة بين ما يسميه "القارئ التجريبي" - بحكم كونه "فاعلا ملموسا" لأفعال التّعاضد- وبين "المؤلف التجريبي"، فيرى أنه ينبغي للقارئ التجريبي أن يرسم فرضية المؤلف، وقد تعد فرضية القارئ التجريبي عن المؤلف، أصوب من الفرضية التي يصوغها المؤلف التجريبي عن قارئه النموذجي.

ورغم ذلك، فإن إيكو يعتقد بأنّ التكهن ب"كفاية القارئ النموذجي" قد يكون غير كاف، لأن هذا القارئ النموذجي، قد يجانب الصّواب في التّحليل التّاريخي أو يقع في خطأ سوء التّقدير السيميائي، أو يسيء تقدير الظروف المحددة لمصير ما...

ومن أجل إنقاذ النص، يرى إيكو أنّ على (القارئ) أن يتخيّل أن كل سطر يخفي دلالة خفيةّ، وأن الكلمات تخفي ما لا تقول، ف"مجد" القارئ يكمن في اكتشاف أنّه ما كان للنص أن يقول كلّ شيء، باستثناء ما يودّ الكاتب التّدليل عليه، وأن كل دلالة مكتشفة غير جيّدة، وأنّ الدّلالة الجيّدة

هي التي تأتي بعدها وهكذا... فالقارئ "الحقيقي" هو الذي يفهم أن "سرّ" النص في عدمه، و"الأغبياء الخاسرين هم الذين ينهون السيرورة بالقول لقد فهمنا" [40] فما لا يقال يعني الذي ليس ظاهرا في السّطح على صعيد التّعبير، وما لا يقال هو الذي ينبغي على القارئ أن يفعله على مستوى المضمون، وهكذا يكتسب النص "حركات تعاضدية فاعلة وواعية" من جانب القارئ. [41]

7 ـ القارئ المؤوِّل:

دافع إيكو في كتابه (الأثر المفتوح) عن الدّور الفعّال للقارئ/المؤوّل في قراءة النصوص الجمالية، لأنّ القراءة نشاط نابع من أثر فني، فالنص عنده كائن مفتوح، وهنا يأتي دور القارئ/المؤوّل الذي بإمكانه أن يكشف بداخل النص سلسلة لا نهائية من الرّوابط.

كما أنّ النص يترك للقارئ المبادرة التأويلية، حتى لو غلبت فيه الرّغبة في أن يكون النص مؤوِّلا أو أن يكون قد فقَدَ هامشا من الأحادية، فالنص غالبا ما يتطلب "إعانة" من القارئ لكي يتحقّق عمله.

ويرى إيكو أنّ من الواجب تجنيب القارئ فرض "التّأويل الوحيد" لأنه توجد عناصر كثيرة في النص تشترك في خلق حالة من الغموض حول الكلمة وفي ملئها بالإيحاءات المختلفة، كالفضاء الأبيض، واللّعب الطباعي والتنظيم الخاص للنص الشّعري.

إنّ المؤلف يقدّم للمؤوّل أثرا يحتاج إلى أن يكمّله، والمؤلف يجهل بأية طريقة يتم ذلك، رغم أنّ النص يبقى نصه هو، وعن طريق "الحوار التّأويلي" يتجدّد النص من طرف قارئ آخر، دون أن يفقد شكل مؤلفّه، وهكذا يبقى الأثر الفني مفتوحا على سلسلة لا منتهية من القراءات الممكنة، وكل قراءة

تعيد إحياء الأثر وفق منظور أو ذوق شخصي خاص، فالعدد الكبير من وجهات نظر المؤوّلين، والعدد الكبير من مظاهر الأثر تلتقي ويضيء بعضها بعضا.[42]

كما أنّ كلّ أثر تقليدي يشترط من مؤوّله جوابا شخصيا وإبداعيا، فهو لا يستطيع فهمه دون أن يعيد اكتشافه بالتّعاون مع المؤلف، تلك هي سمات العمل المفتوح والمتحوّل، حيث يدعو القارئ إلى المساهمة في صنعه مع المؤلف.

وللقارئ الحقّ في بلورة العلاقات الدّاخلية التي تحكم الأثر حسب إدراكه الخاص، ولكن إيكو يشدد عند مساءلة القارئ للأثر مساءلة لا نهائية، على التقيّد بالاستراتيجية النصية، بأن يسائل النص وليس أهواءه الذّاتية.

8 ـ القارئ المفكك:

يرى إيكو أن كثيرا من القرّاء المعاصرين "يتيهون" في النص، ويوظّفون أساليب متعدّدة: كاللّعب بالكلمات والاشتقاقات المجهولة، والتّداعيات اللاواعية، والصوّر الغامضة، والنّسيج اللّفظي الظاهري بحثا عن "سيميوزيس لامتناهية"[43]. ورغم أنّه يحق للمتلقي أن يقرأ في الإرساليات الأشياء والرّموز بشكل غامض، ولكن ليس بإمكانه أن يقول إنّ هذه الإرسالية أو تلك تدل على كلّ شيء. فالإرسالية حسب إيكو - وإن كانت تدلّ على أشياء كثيرة- فإنّها لا تدلّ على كلّ شيء. كما أنّ التّأويل - وإن كان ضرورة وحتمية- إلا أنّ المؤوَّل "يجب أن يتم الكشف عنه في مكان ما وبمعنى ما"[44]. ولذلك يصف إيكو (القارئ/المؤوِّل) ب"العبد" و"الخادم الوفي" حتى يكون "سيّدا" لـ"السيميوزيس".

ويذكّر إيكو بتوجيه جاك دريدا (J.Derrida) للقرّاء بأهميّة أدوات النّقد التّقليدية، لأنها تشكّل حاجزا ضد "الانحراف" وقول أي شيء في القراءة

والتأويل، رغم أنّ وظيفة هذه الأدوات التّقليدية لم تشكّل انفتاحا على قراءات جديدة - حسب رأيه - إلا أنّ هناك ما يدحض القراءة التي يقدّمها (دريدا) فرغم أنّ العلامة يميّزها نوع من "الهشاشة" و"الامتداد"و الالتباس" إلا أنّ فكرة المدلول كما نجدها عند (تشارلز بيرس) قد صيغت بطريقة لتحيل على غاية ما، ورغم هذا، فإنّ هذه الغاية لا تنفي حقّ "القارئ التّفكيكي العنيد" أن يجد في النص ما يصبو إليه، لأنّ النص يحتوي على جملة من التّداعيات.

ورغم اختلافه مع دريدا، إلا أنّ إيكو يتّفق معه عندما يقول إنّ "للعلامة الحقّ في أن تحدّد قراءتها حتى لو ضاعت اللّحظة التي أنتجتها للأبد أو جهلت ما يودّ الكاتب قوله". [45]

وفي إطار تصوّره للقارئ التفكيكي، يوجّه إيكو هذا القارئ في عملية التّأويل، إلى مسألة "التّناظر" أو"التّماثل" في النص، أو ما يسمى أيضا (التّشاكل) الدّلالي أن يفتّش عن "ثيمة" الخطاب"، فبمجرّد أن يدرك فحوى هذه الثيمة، بإمكانه التعرف على تناظر دلالي قارّ، سيكون هو الدليل النصّي على الغاية الفعليّة للخطاب، لأنّه بمجرّد ما يتجسد "الماثول" - على حد تعبير بيرس- فإنه يكتسب استقلالية سيميوزيسية، فتصبح قصدية المتلفظ بلا أهميّة [46].

وإذا كان من حق (القارئ/المفكك) - الموجود داخل كون تحكمه المماثلة والتداخل الكوني- أن يفترض أن ما يعتقد أنه "دلالة علامة"، فإنها علامة تشير إلى دلالة إضافية. وفي هذا الإطار، ينطلق إيكو من مقولة بول فاليري (Paul Valéry): "ليس من معنى حقيقي لنص ما". وهي مقولة تتيح المجال لقرائتين، أولاهما: قراءة تتيح للقارئ أن يتصرّف بالنص وفق ما يحلو له.والقراءة

الثّانية هي التي تخوّل القارئ أن يطلق تأويلات "لا متناهية" عن نص ما. والقارئ المثالي هو "ذاك العامل الجدير بأن يضع موضع الفعل في سياقة الزّمن أكبر عدد ممكن من القراءات المتقاطعة" [47]. فالاستخدام الحرّ للنص من قبل القارئ يستدعي توسيع عالم الخطاب، وهنا يجب على القارئ أن يميّز بين الممارسة السيميائية المحدودة على النص، وبين التّأويل اللانهائي للنص.ويميّز إيكو بين (النصوص المنغلقة) التي يعتبرها أشد "عنتا" من (النصوص المنفتحة) ولذلك توجّه النصوص المنغلقة لقارئ نموذجي محدّد بدقّة، قصد توجيه "تعاضده" بصورة تعطيه هامشا للمناورة.

في الختام يمكن القول إنّ نظريات القراءة والتّأويل والتّفكيك قد عرفت مسارات وتحوّلات عدّة من خلال مساهمات المفكرين والباحثين والنقاد، قبل أن تتبلور وتصبح أكثر وضوحا وعمقا عند أمبرتو إيكو الذي أولاها أهميّة قصوى في كتاباته النّقدية، باعتبارها نشاطا فكريا فعّالا ومنتجا، أطلق عليه "النّشاط التّعاضدي".

وتتلخص معالم النّظرية الجديدة للقراءة والتّفكيك والتّأويل عند إيكو فيما يلي:

- الانطلاق من مفاهيم الظاهراتية ونظريّة التّأويل والبنيوية السيميائية للمؤلف والقارئ والنص.

- عدم كفاية تلك النظريات لإرساء استراتيجية قراءة كاملة.

- الفهم الجيّد للعلاقة بين الناقد والنص تظهر مدى فعالية النّاقد من خلال الكشف عن كيفية قراءة النص والكشف عن جمالية التّأويل والتّلقي، وتحويل النص من حالة الكسل إلى حالة النّشاط.

- اعتبار القارئ ركيزة أساسية في عملية إنتاج الدّلالة.
- رفض القراءة الوحيدة أو "الجلدية" للنصوص.
- تبني القراءة البينية وتحوّلاتها.
- يقوم التأويل على جدلية دائمة بين استراتيجية المؤلف واستجابة القارئ النّموذجي.
- إحلال قصدية القارئ محل قصدية المؤلف.
- الانطلاق في العالم الحكائي من العالم الممكن، من خلال استراتيجية لغوية في وصف مسار الأحداث من زاوية المؤلف وزاوية القارئ.
- اعتماد القارئ النّموذجي على سلسلة من الكفاءات أو الوسائط كاللّغة والموسوعة والتّراث المعجمي لتأويل النص.

الهوامش:

1 ــ حسين الواد، من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل، مجلة فصول، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، 1984، ص 115.

2 ــ ينظر: روبير دو ترانس، ترجمة أنطوان فوزي، ص 45. نقلا عن: سعيد عواشرية: الفهم اللغوي القرائي واستراتيجية المعرفة، المجلس الأعلى للتربية، د.ط، 2004، ص 15.

3 ــ ينظر: رولان بارت، (س/ز) (S/Z)، ص17، 18، نقلا عن: وليام راي، المعنى الأدبي، من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة يونيل يوسف عزيز، ط1، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1987، ص 199.

4 ــ علي حرب، قراءة مال لم يقرأ، نقد القراءة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء العربي، بيروت، العدد: 61/60، جانفي، فيفيري، 1989، ص 41.

5 – أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية)، ترجمة، أنطوان أبو زيد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1996، ص 07.

6 ــ نفسه، ص 07.

7 ــ نفسه، ص 08.

8 ــ ينظر: نفسه، ص 08.

9 ــ ينظر: نفسه، ص 61.

10 ــ نفسه، ص 28.

11 ــ ينظر: نفسه، ص 08.

12 ــ ينظر: نفسه، ص 10.

13 ــ نفسه، ص 09.

14 ــ نفسه، ص 09، 10.

15 ــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكَراد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2000، ص 85.

16 ــ نفسه، ص 43.

17 ــ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية)، ص 64.

18 ــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 22.

19 ــ ينظر: أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 23.

20 ــ ينظر: نفسه، ص 42.

21 ــ نفسه، ص 92.

22 ــ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد في النصوص الحكائية)، ص 170.

23 ــ ينظر: نفسه، ص 70.

24 ــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 100.

25 ــ ينظر: أمبرتو إيكو، الأثر المفتوح، ترجمة عبد الرحمن أبوعلي، ط2، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، 2001، ص 17، 18.

26 ــ ينظر: نفسه، ص 18.

27 ــ ينظر: نفسه، ص 22.

28 ــ نفسه، ص18.

29 ــ Blac, models and Metaphore, Ithaca, Cornell U P.

30 ــ Beardsley, Monroe, Aesthtics, Horcurt, New York

31 ــ Hesse, Mory, Mortels and Analogies in sciency South bend, University of Notre Dame Press.

32 ــ Levin, Samuel, The Semeotic if Metaphore, Baltimore, The johns Hopkins Press.

33 ــ Searle, john, Sens et expression, Etude de theories des Actes du language, Minuit, Paris.

34 ــ ينظر: أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 147.

35 ــ ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة)، المدارس للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء، 2000، ص45.

36 ــ T.Todorov, viaggionellacritica, lettra, 4,1987, p12.

37 ــ ينظر: أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية)، ص63.

38 ــ ينظر: نفسه، ص76.

39 ــ نفسه، ص78.

40 ــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص43.

41 ــ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية)، ص62.

42 ــ ينظر: Luigi Paryson, Estetica, teoria della formativita, p204, 209 نقلا عن أمبرتو إيكو: الأثر المفتوح، ص41.

43 ــ أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص120.

44 ــ نفسه، ص84.

45 ــ J.Derrida, signature, évenement, contexte, in marges de la philosophie, 1972, p377.

46 ــ ينظر: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص76.

47 ــ أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية)، ص72.